من بركات العدل

والأمثلة كثيرة من تاريخنا المجيد للذين كان كل همهم إحقاق الحق والحكم بالعدل ونصرة المظلومين ولذلك مكَّن الله لهم في الأرض وجعلهم أئمة وجعلهم الوارثين. وصدق من قال: عدل السلطان أنفع من خصب الزمان. ففي أثناء خلافة عمر بن عبد العزيز كان الرعاة يأتون من البوادي يتعجبون مما حدث للوحوش يقولون: ألا رأيتم ما حدث لقد توقفت الذئاب أن تهجم على الأغنام وذلك من بركة الحاكم العادل ولما مات عمر هجمت الذئاب على الأغنام تتخطفها فقالوا: ارصدوا هذا اليوم ولما ذهبوا إلى الشام وجدوا أن أمير المؤمنين العادل قد مات في ذلك اليوم الذي هجمت فيه الذئاب على الشياه فإن البركة تنزع بموت الحاكم العادل واللعنة تحل بحلول الحاكم الظالم، وحتى الخوارج الذين ذاق منهم حكام بني أمية الأمرَّين كفوا عن محاربة عمر بن عبد العزيز لما رأوا من عدله وحسن سيرته بين الرعية. ولذلك قيل: سلطان عادل خير من مطر وابل.

وحقًّا عدل السلطان خير من خصب الزمان فماذا تجدي كثرة الخيرات والإنسان لا يأمن على ماله مَن استرعاهم الله حفظ الحقوق وأداء الأمانات. فالظلم مقوض للعمران ونذير شؤم وخراب قال كسرى أنوشروان: إن المَلِك إذا كثر ماله مما يأخذ من رعيته كان كمن يعمر سطح بيته بما يقتلعه من قواعد بنيانه. وصدق فيما قال فلا شيء أقرب إلى تغيير نعمة وتعجيل نقمة من الإقامة على الظلم ومن البغي والعدوان.

وقال بعض الحكماء: إن العدل ميزان الله الذي وضعه للخلق ونصبه للحق فلا تخالفه في ميزانه ولا تعارضه في سلطانه.

وما أجمل قول الشاعر الحكيم:

العدلَ روحٌ به تحيَا البلادُ كما ... دمارُها أبدًا بالجورِ ينحتمُ

والجورُ شَيْن به التعميرُ ممتنعٌ ... والعدلُ زَيْن به التمهيدُ ينتظمُ

العدل مع الأعداء

والعدل قيمة لا تتجزأ ولا تعرف الانتقائية في تطبيقها مع من نتعامل من الناس، فالمسلم يعدل مع الغني والفقير، ومع العدو والصديق ومع القريب والبعيد ففي الحديث الذي أورده الألباني في «سلسلته الصحيحة» أن رسول الله ﷺ قال: «والعدل في الغضب والرضا».

وهذا هو أعلىٰ مراتب العدل إذ قد يعدل الإنسان في حال الرضا ويعطي الحقوق لأصحابها ولكن يصعب عليه أن يفعل ذلك وهو غاضب فأغلب الناس إذا ما أحبوا إنسانًا ستروا كل نقائصه وغضوا الطرف عما له من مثالب وعيوب وإذا ما أبغضوه عابوه وستروا كل فضائله ولم ينصفوه.

وصدق الشاعر إذ يقول:

وعين الرضا عن كلِّ عيبٍ كليلةٌ وعينُ السخطِ تُبدى المساويا

بينما المؤمن إذا رضي لم يُدخله رضاه في باطل وإذا غضب لم يخرجه غضبه من حق فهو تغلب عدالتُه عواطفَه وهواه.

وانظر إلىٰ تلك القصة الرائعة التي رواها الإمام مالك في «الموطأ» وروىٰ مثلها أحمد في «المسند» أن رسول الله ﷺ لما بعث عبد الله بن رَوَاحة إلىٰ اليهود ليقوم بتقدير ما عندهم من الثمار والزروع ليأخذ منها حسبما اتفق عليه بعد فتح خيبر فلما جاءهم حاولوا رشوته ليتساهل معهم في أخذ الحق منهم وليتجاوز في القسم فأبىٰ أن يأخذ رشوتهم وقال لهم: (والله لقد جئتكم من عند أحب الخلق إليَّ (يعني: رسول الله ﷺ) ولأنتم أبغض إليَّ من أعدائكم من القردة والخنازير ولكن لا يحملني حبي إياه ولا بغضي إياكم علىٰ ألا أعدل بينكم، فقالوا بهذا قامت السموات الأرض وبهذا تغلبوننا).

وقول اليهود: «إن السموات والأرض قامتا بالعدل» لأنه لو كان ركن من أركان هذا العالم أو كانت جهة من جهاته الأربع زائدة على الأخرى وكانت ناقصة عن مقتضى الحكمة لم يكن العالم منتظمًا، فالعدل يضع كل شيء في موضعه ويعيد الأمور إلى نصابها.

فالله ـ رب العالمين وأحكم الحاكمين ـ عادل في خلقه وأوامره التشريعية والتكوينية كلها مبنية على العدل وعلى مقتضى الحكمة فما من شيء في الوجود إلا ويتجلى فيه عدل الله عز وجل، فهو بمقتضى علمه الواسع وحكمته الشاملة يعلم أن بناء أي شيء يحتاج إلى مقادير معينة من العناصر ليؤدي مهمته المكلف بها في يسر واقتدار ولذلك فهو عز وجل يركِّب تلك العناصر ويؤلف بينها على التمام والكمال بحيث لو فقد عنصر من تلك العناصر لاختل البناء ولتعرض للسقوط والانهيار.

* * *

لماذا خلق الله الشر؟

والله عز وجل أحكامه كلها عدل ليس فيها جور فهو سبحانه منزه عن الظلم وكما قال سيدنا علي: (التوحيد ألا تتوهمه والعدل ألا تتهمه) أي: التوحيد تنزيه ذاته الشريفة عما يمكن أن تتصوره الأوهام وعن كل ما يخطر على البال من تهمة أو شك أو ارتياب. فالله لا يفعل إلا الخير ولا يأمر إلا به فالشر لا وجود له في الذات بل فيما خلق من أعراض.

فكل شيء يقع في هذا الكون من خير أو شر فإنما هو بإرادة الله عز وجل ومشيئته وإن كان لا يحب الشر ولا يرضاه لعباده ولا يأمر به ولكن خلق الشر وأوجده لحكمة وهي الابتلاء حتى يتميز الخبيث من الطيب ويتبين الصالح من الطالح وأيضًا لتحقيق التكامل في الكون ولتوزيع الأدوار التي يؤديها كل فرد فيختار كل امرئ ما يُحاسَب

عليه حين يبعث بين يدي الله عز وجل.

فالشر بخلاف الخير ليس مقصوداً لذاته بل لإظهار كوامن النفس وما ينطوي عليه القلب فهو كالدواء المر فإنه يراد لغيره أي لتحقيق الشفاء بإذن الله، ولذلك إذا سمعت بقصة في ظاهرها شر أو ظلم فاعلم أنك ما سمعت إلا فصلاً واحداً من تلك القصة وما رأيت إلا مشهداً منها وبقيت بقية المشاهد لم تعلمها ولو علمتها لرأيت العدالة في أبهى صورها فانتظر حتى ترى الفصل الأخير أو حين يجمع الله الناس ليوم لا ريب فيه فالعاقبة دائمًا للمؤمنين المتقين.

ولذلك ورد في «صحيح مسلم»: «**إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه**». ولعلك تلاحظ أنه قدم: «**يخفض القسط**» على: «**يرفعه**» فالله يجعل الخفض يسبق الرفع وذلك لتكون الخاتمة دائمًا لرفع القسط والعدل ولخفض الظلم والجور، والأمور بخواتيمها والله يعلم ما يصلح عباده وما فيه نفعهم وخيرهم يقول عز وجل: ﴿**إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا**﴾ [الإسراء: ٣٠] ويقول أيضًا: ﴿**وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة: ٢٣٢].

ولذلك فالشر في القرآن ـ بخلاف الخير ـ لا يأتي منسوبًا إلى الله بل إلى غيره كما قال عز وجل على لسان الجن في سورتهم: ﴿**وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا**﴾ [الجن: ١٠] فعند الكلام عن الشر نسب الفعل إلى المجهول ولكن عند الكلام عن الخير والرشد نسب الفعل صراحة إلى الله عز وجل مع أن كل شيء بتقديره عز وجل.

وانظر إلى الخضر في قوله: ﴿**أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا**﴾ [الكهف: ٧٩] فقد نسب العيب إلى نفسه لأنه لا يجوز أو لا يليق نسبة العيب إلى الله عز وجل ولكن حينما أراد أن يتكلم عن بناء الجدار ليحقق بذلك مصلحة الغلامين اليتيمين فصح نسبة ذلك إلى الله عز وجل فقال: ﴿**وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ**

رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ [الكهف: ٨٢].

وانظر أيضًا إلى إبراهيم عليه السلام وهو يصف ربه فيقول: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨-٨٠]. فإنه نسب المرض إلى نفسه تأدبًا مع ربه وإن كان كل شيء بقدر ربه ومشيئته ولكن إذا تدبرنا لوجدنا أن المرض في كثير من الأحيان إنما يكون بسبب الإنسان نفسه فهو لا يأخذ بأسباب الحذر والوقاية ويسرف في طعامه وشرابه حتى يصاب بالتخمة والسمنة وما ينتج عن ذلك من العلل والأسقام ولذلك بعد أن قال: ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ [الشعراء: ٧٩]. ذكر بعدها ما يترتب على الإفراط في الطعام والشراب من الأمراض فقال: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠] وصدق الله إذ يقول: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠] ويقول أيضًا: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]، فربنا منزه عن الظلم فالخير بيديه والشر لا ينسب إليه: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]، ويقول أيضًا: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: ٣٣].

فانتظام الكون وإبداع الصنع وإحكام كل شيء ودقة النواميس التي يسير عليها الكون لهو العدل الذي قامت عليه السموات والأرض، فالكون كله متماسك الأطراف متناسب الحركة متحد القوى، تتعاون فيه القوى المختلفة بين السماء والأرض فلا تشذ قوة من هذه القوى السفلية أو العلوية عن نظام الوحدة الكلية التي تربط بين أجزاء هذا الكون ولذا نرى استقرار النواميس الكونية واتساق حركة الكواكب في مداراتها الفلكية كلٌّ يسبح في فلك دائر ويسير وفق نظام ثابت مستقر الدعائم وصدق الله إذ يقول: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، وقوله أيضًا: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ

﴿يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

فمهما قلبت البصر ودققت النظر فسترىٰ تناسقًا عجيبًا وترابطًا وثيقًا وسننًا ثابتة لا تتخلف قيد أنملة كما يقول عز وجل: ﴿مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ﴾ [الملك: ٣]، ولذلك فلا ينبغي أن يشذ الإنسان الذي كرمه الله عن هذا الناموس فقد حدد أحكم الحاكمين لكل إنسان مالَه من الحقوق وبيَّن له ما لا يجوز أن يتخطاه من الحدود، فهو المقسط عز وجل الذي أعطىٰ كل إنسان قسطه وحظه من المال والعقل والأخلاق وهو تمام العدل والإنصاف بل والإحسان، يقول عز وجل: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨].

فينبغي للعبد أن يرضىٰ بقسمة مولاه ولا يخرج عن هذا الإجماع ولا أن يطغىٰ أو يطفف في الميزان فيكون منه ظلم وبغي وعدوان يقول عز وجل: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝٧ أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن ٧-٩].

* * *

العدل أساس الملك

ولأن العدل يحتاج إلىٰ دقة وتقدير عبر القرآن عنه بكلمة «الميزان» كما في قوله عز وجل: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾ [الشورىٰ: ١٧]، ففي الميزان معني العدل والإنصاف وأيضًا فمن مادة القسط جاءت كلمة (القسطاس) بمعنىٰ الميزان أيضًا فقال عز وجل: ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ [الإسراء: ٣٥].

فالميزان والقسطاس هما ما تقاس بهما الحقوق وتقدر بهما الأشياء فمتىٰ وقع فيهما الجور والمحاباة لأي سبب من الأسباب زالت الثقة من بين الناس وانتشرت

فيهم المفاسد وتقطعت بينهم الروابط فلا يلبثون أن يسلط الله عليهم بعض عباده الذين هم أقرب إلى إقامة العدل منهم فيبيدون خضراءهم ويزيلون استقلالهم ويذيقونهم وبال أمرهم.

فالأمة الإسلامية لا يشفع لها إسلامها في استحقاق النصر من الله إذا كانت ظالمة، فمن أسباب النصر والتمكين في الأرض إزالة المظالم عن الخلق وإحقاق الحق ونشر العدل وأن يكون ذلك في كل مجالات الحياة وما أصدق ما قاله ابن تيمية: (إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة ولا يقيم الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة) فقد عاصر ابن تيمية ـ رحمه الله ـ كثيراً من الممالك المسلمة وهي تنهار أمام هجمة التتار الذين لا دين لهم ولا كتاب. فإقامة العدل هي التي تقوي الثقة بين الناس وتجعل كل فرد في المجتمع يبذل أقصى جهده في ترقية نفسه وخدمة بلده وهو آمن من أن يبخس شيء من حقه أو يعتقل ويلقى به في غيابة السجن وهو بريء دونما تهمة أو تحقيق. فإقامة العدل من شأنها أن ينعم الناس في ظلها بالاستقرار وأن يعم الرخاء في ربوع البلاد.

وبالمثل فإن دعوة المظلوم يستجاب لها وإن كان صاحبها فاجراً لأن فجوره ومعصيته لا تقتضي ظلمه بدون وجه حق وفي «صحيح الجامع» للألباني: «دعوة المظلوم مستجابة وإن كان فاجراً ففجوره على نفسه» كما أن عدل الحاكم يرجع نفعه إلى رعيته، وظلمه يقع عليها بينما فسقه وفجوره إنما يكون على نفسه.

فبقاء الأمم بالعدل فالعدل أساس الملك كما أن خراب الأمم بالظلم يقول عز وجل: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾ [النمل: ٥٢]. ويقول أيضاً: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ [الأنبياء: ١١]. فالدولة المسلمة مع الظلم تفنى والدولة الكافرة مع العدل تبقى، فالله إنما استخلف هذه الأمة وجعل فيها الخيرية لتقيم العدل بين الناس فإن هي تخلت عن هذه الرسالة فإنها إنما تكون قد فقدت مقومات بقائها وأحقيتها في أن تكون مستخلفة من قبل ربها، بل ويتخلى عنها ربها ويكلها إلى نفسها ويجعلها في مؤخرة الأمم.

وصف عمرو بن العاص لأهل الغرب

ومن طريف ما يروى أنه لما خرجت بريطانيا من الحرب العالمية الثانية منهكة وقد هدمت إمكاناتها تمامًا فأخذ رئيس وزرائها «تشرشل» يسأل وزارته وزيراً وزيراً عن الحال في وزارته فيقول لوزير الصناعة: كيف الصناعة عندك؟ فيقول له: المصانع مدمرة، ويسأل وزير الزراعة: كيف الزراعة عندك فيقول: لا ثمار ولا غلال ويسأل وزير المالية: كم في الخزينة عندك؟ فيقول لا شيء، خواء، فكل ما عندهم دمر وضرب أثناء الحرب فالتفت إلى وزير العدل وسأله: كيف العدل عندك؟ فقال: بخير، فقال كلنا إذن بخير، فبالعدل يأمن كل إنسان على نفسه وماله وعرضه فالعدل سبب أساسي في الاستقرار وفي سلامة المجتمع من المكائد والمؤامرات التي لا يلجأ إليها إلا من شعر بالقهر والانسحاق. كما أنه يؤدي إلى انتزاع الحق والحسد والبغضاء من قلوب الناس وإلى شيوع روح المحبة والتسامح والإخاء.

ولذلك استطاعت دول الغرب أن تعيد بناء نفسها مرة أخرى وانتقلت ألمانيا من الدمار إلى العمار في سنوات قليلة بما يشبه المعجزة ويصدق ذلك ما رواه أحمد في «المسند» ومسلم في «الصحيح» أن المستورد بن شداد القرشي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**تقوم الساعة والروم أكثر الناس**» فقال له عمرو بن العاص بعد أن سمع منه هذا الحديث: (لئن قلت ذلك فإن فيهم لخصالاً أربعًا: إنهم لأحلم الناس عند فتنة وأسرعهم إفاقة بعد، مصيبة. وأوشكهم كرة بعد فرة، وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف، ثم أضاف خامسة فقال: وأمنعهم من ظلم الملوك). فالظلم عندهم ممتنع لأن حكامهم يحكمون بالعدل فيما بينهم، كما أن شعوبهم تأبى الضيم ولا ترضى بالظلم بل تقاوم الظالمين حتى تعيد الحقوق إلى أصحابها والأمور إلى نصابها هذا ما يحدث في الغرب.

بينما ما زالت معظم الدول الإسلامية تعيش في تخلف وفقر وتراوح في مكانها

مع أنها نالت استقلالها منذ عقود طويلة ولكنه استبداد الحكام وظلمهم واستئثارهم بخيرات البلاد دون غيرهم وقهرهم لشعوبهم ولذلك يسلط الله عليهم من يغزوهم في عقر دارهم ويزيلهم عن سلطانهم وصدق من قال: سبع حطوم خير من والٍ غشوم، وما يحدث في العراق إنما هو مثال واحد وخير شاهد على ما نقول وأيضًا لا يمكن إعفاء الرعية من المسئولية فعليهم إسداء النصح لولاة الأمر فأفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً ولنتذكر حديث الترمذي: «**إن الناس إذا رأو الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب**». وأيضًا حديث الترمذي وأحمد والطبراني والحاكم: «**إذا رأيت أمتي تهاب الظالم أن تقول له: إنك ظالم فقد تُوُدِّع منهم**».

ولذلك لما بعث عامل لعمر بن عبد العزيز يشكو له خراب مدينته ويسأل المزيد من المال ليبني الحصون والأسوار فقال له: (حصِّن مدينتك بالعدل ونقِّ طرقها من الظلم). فالأسوار لا تجدي والحصون لا تغني والجيوش لا تحمي الظالمين، وإنما يحميهم أن يقيموا العدل في بلادهم وبين رعيتهم، فقد جاء رجل من الروم إلى المدينة عاصمة الخلافة الإسلامية، أرسله القيصر ليتعرف على الأسباب التي أدت إلى انتصار المسلمين على الروم في الشام وعلى أحوال المسلمين وطريقة حكمهم، جاء يسأل عن خليفة المسلمين أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فدلوه على مكانه وكان نائمًا تحت ظل شجرة بدون حراسة فقال قولته المشهورة: (حكمت فعدلت فأمنت فنمت يا عمر) فهل من معتبر؟!

وقد هجر كثير من المسلمين بلادهم وهاجروا إلى الغرب وحصلوا على جنسيات البلاد التي هاجروا إليها وعاشوا فيها يقيمون شعائر دينهم آمنين مطمئنين لا يجور عليهم أحد ولا يحاربون في أرزاقهم بسبب اختلاف عقائدهم، وذلك بعد أن ضاقت عليهم بلادهم فتركوها فرارًا من بطش الحكام الذين اضطهدوهم وساموهم سوء العذاب لا لشيء إلا لأنهم قالوا ربنا الله ولا نعبد إلا إياه وهو شأن الطغاة في

كل زمان ومكان كما يقول عز وجل: ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨].

وقد حدث مثل هذا في زمن الرسول ﷺ فلما اشتد إيذاء كفار قريش للمسلمين أذن لهم الرسول ﷺ في الهجرة إلى الحبشة وهي بلاد بعيدة لا سلطان لقريش عليها، فركبوا البحر واستقروا بتلك البلاد النائية سنوات طوال يعبدون الله وهم آمنون بعد أن حرموا حرية العبادة في بلادهم وكان من أسباب اختيار الرسول ﷺ للحبشة ليهاجر إليها المسلمون أن بها ملكا لا يظلم عنده أحد فهو وإن كان على غير دينهم إلا أنه تركهم وما يعبدون بل ورد مبعوثي قريش خائبين ورفض قبول هداياهم لما أرسلت قريش في طلبهم فقد أبى عدل النجاشي أن يظلم أحد في أرضه وتحت سلطانه.

ولذلك فإن من أهداف الجهاد في الإسلام ودواعيه إنما هو إزالة الطواغيت التي تحول بين الناس وعبادة ربهم، وحتى يختار الناس لأنفسهم ما يرتضون فلا إكراه في الدين ولا يفتن أحد أو يعذب أو يضطر إلى الخروج من أرضه والهجرة إلى بلاد أخرى بسبب عقيدته ولذلك لما سأل رستم قائد الفرس ربعي بن عامر ما الذي جاء بكم إلى بلادنا؟ فقال له: إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

ولذلك يقول عز وجل: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩] ويقول أيضًا: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧) إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً (٩٨) فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا (٩٩) وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٧-١٠٠].

الإسلام سماحة وعدالة

فالدولة الإسلامية تكفل لكل من يعيش فوق أرضها حرية العبادة وممارسة شعائر دينهم طالما أنهم مسالمون، فهم من أهل الذمة الذين يقوم المسلمون بالدفاع عنهم وحماية دور عبادتهم وأن نبرَّهم ونقسط إليهم قال عز من قائل: ﴿**لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾ [الممتحنة: ٨].

وقد رفض عمر بن الخطاب أن يصلي داخل كنيسة بيت المقدس لما فتحت في عهده، وصلى خارجها حين حان وقت الصلاة وذلك في المسجد الذي يعرف باسمه إلى الآن لئلا يقوم المسلمون بعد ذلك بهدم أماكن العبادة لأهل الأديان الأخرى وتحويلها إلى مساجد بحجة أن عمر قد صلى فيها فهذا هو الإسلام في سماحته وعدالته فأين هذا مما يفعله ممن أعمى الحقد والتعصب قلوبهم من الإغارة على مقدسات المسلمين وهدم مساجدهم ومنعهم من الصلاة فيها؟! كما حدث في الاتحاد السوفيتي السابق وكما حدث في البوسنة والهرسك وما يحدث من الهندوس والسيخ وما يحدث الآن في فلسطين.

وانظر إلى صلاح الدين بعد انتصاره على الصليبيين ودخوله بيت المقدس بعد تحريره من أيديهم كيف عفا عنهم ولم يقتلهم أو يعاملهم بالمثل.

وفي هذا يقول الشاعر الحكيم:

ملكنا فكان العفو منا سجيةً ... فلمَّا ملكتُم سالَ بالدمِ أبطحُ

وحلَّلتم قتلَ الأسُارى وطالَما ... غدونا عَن الأسْرى نعفُ ونصفحُ

وحسبُكم هذا التفاوتُ بيننا ... وكل إناءٍ بالذي فيه ينضحُ

فأعداء الإسلام في كل زمان ومكان وأهل الظلم والبغي والطغيان يكيلون

بمكيالين ويقيسون بمقياسَيْن فإن قُتِل أحدُهم أقاموا الدنيا ولم يقعدوها بينما لا يُحاسِبونَ مَن يقتلون الشعوب حتى صدق عليهم قول الشاعر:

قَتْلُ امرئٍ في غابةٍ جريمةٌ لا تُغتفَرْ
وقَتْلُ شعبٍ آمنٍ مسألةٌ فيها نَظَر

* * *

منزلة العدل في القرآن

فما أشد حاجة العالم الآن إلى عدل الإسلام وإلى رجال أمثال عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز وصلاح الدين ليملئوا الأرض قسطًا وعدلاً بعد أن ملئت جورًا وظلمًا وحتى يعيش الناس في أمن وسلام.

وقد أشاد القرآن بفضيلة العدل فبعد أن أمرنا الله بأن نؤدي الأمانات إلى أهلها وأن نحكم بين الناس بالعدل وذلك في قوله عز وجل: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ**﴾ [النساء: ٥٨] قال بعد ذلك مرغبًا لنا في التمسك بهذا الأمر الإلهي والالتزام بهذا الخُلُق الرباني: ﴿**إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ**﴾ [النساء: ٥٨] أي: نِعْم الشيء الذي يعظكم به الله وهو أن تعدلوا بين الناس.

وانظر أيضًا إلى قوله عز وجل: ﴿**وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ [النحل: ٧٦] فالآية تعقد مقارنة لطيفة بين تلك الأصنام العاجزة الضعيفة والتي لا تقدر على شيء ولا تنفع أو تضر، وبين رب العزة الذي يأمر بالعدل، واختار الله عز وجل لذاته تلك الصفة وهي (يأمر بالعدل) والتي تقوم بها السموات والأرض وينصلح بها أمر الخلق وتستقيم بها حياتهم على هذه

الأرض، ولذلك جاء بعدها بصفة أخرىٰ لها علاقة وثيقة بصفة العدل فقال عز وجل في ختام الآية: ﴿وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ٧٦] كما قال أيضا مؤكداً ذلك في آية أخرىٰ: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦]. فهو قائم بالقسط، آمر بالعدل ويحكم به فهو علىٰ صراط مستقيم لا انحراف فيه أو زيغ ولا اعوجاج فيه أو ميل بينما غيره من السبل جائر ومائل كما قال عز وجل: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾ [النحل: ٩].

وانظر أيضًا في نفس المعنىٰ إلىٰ قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥] فبعد أن أمرنا الله في هذه الآية بإقامة موازين العدل دون مراعاة لحظ النفس أو محاباة لقريب أو مجاملة لغني علىٰ حساب فقير قال: ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا﴾ [النساء: ١٣٥] ثم قال: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا﴾ [النساء: ١٣٥] فأمرنا بعدم اتباع الأهواء لئلا نعدل عن سواء الصراط بل علينا أن نمضي قُدمًا لا نلوي علىٰ شيء وإلا وقع الالتواء عن القصد والإعراض عن الحق ولذلك ختم الآية بعد ذلك بقوله: ﴿وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥].

* * *

خليفة على الأرض

ولذلك جاء التحذير من اتباع الأهواء خشية الجور في الأحكام فإن داود عليه السلام لما أصدر حكمه لصالح أحد الخَصمَيْن وهو صاحب النعجة الواحدة الذي إذا ما سمعتَ شكواه فإنك تشعر نحوه بالتعاطف والإشفاق وذلك دون أن يسمع من الطرف الآخر وقد تكون له حجة أو بينة وهو ما ورد في قوله عز وجل: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ

﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤].

فقال الله له بعد ذلك: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦]. فليس معنى أنك نبي وقلبك مشغول بالذكر، ولسانك ينطلق بالتسبيح مع الجبال والطير أنك تعتزل الناس وتحتجب عن رعيتك وتعتكف في محرابك تاركًا أمر من استرعاك الله شأنهم والقيام على إصلاح حالهم، فقد جعلك الله خليفة فلا ينبغي أن تترك الناس تقع بينهم الخصومة وتحدث بينهم القطيعة دون أن يجدوا من يفصل بينهم ويحجز بعضهم عن بعض فنحن لسنا كالملائكة التي لا تحتاج إلى طعام وشراب نحن بشر نعيش على الأرض لا في السماء ولنا أجساد لها مطالب ورغبات ولنا أهل وأولاد لهم حاجات وضرورات ولذلك قال الله عز وجل في التعقيب على الأحداث: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ [ص: ٢٦].

فالناس لا غنى لهم عن وجود حكام أو قضاة يلجأون إليهم إذا وقعت بينهم منازعات أو شقاق فيقومون بفض ما شجر بينهم من خلافات ويعيدون إليهم الوئام والائتلاف بعد حدوث التجاوز والبغي والعدوان. ولولا ذلك لضاعت حقوق العباد وما أرسل الله الرسل ولا أنزل الكتب إلا من أجل إقامة العدل بين الناس ولحفظ الحقوق وصيانة الأموال والأعراض.

* * *

نظام القضاء في الإسلام

وللعدل صلة وثيقة بالقضاء وذلك لأن القضاء إذا صلح شاعت العدالة ووصل إلى كل إنسان حقوقه كاملة دون بخس أو نقصان فبالقضاء العادل تحفظ الحقوق، وتصان الدماء والأعراض والأموال.

وفي أزهى عصور الإسلام كان لا يتولى القضاء ولا يقضي بين الناس إلا من كان

فقيهًا بالسنة والكتاب، عالمًا بالقياس، قد بلغ درجة الاجتهاد وكان قادرًا على التمييز بين الخطأ والصواب، وكان القاضي لا يقضي وهو في حالة غضب شديد أو جوع مفرط أو هم مقلق فهذه الأشياء تشتت الذهن، وتشغل القلب وتصرفه عن العلم الصحيح والفهم الدقيق وفي «الصحيحين»: «**لا يقضين حاكم بين اثنين وهو غضبان**».

ولذلك كان القاضي شريك لا يجلس للحكم إلا بعد أن يتغدى حتى يشبع ثم يصلي ركعتين ثم يخرج رُقعة ينظر فيها ثم يدعو بالخصوم، فقيل لابنه عن الرقعة بعد موت أبيه فأخرجها فإذا فيها: يا شريك اذكر موقفك بين يدي الله عز وجل.

وعلى القاضي أن يُسوِّي بين الخَصمَيْن في خمسة أشياء كما ورد ذلك عن الشافعي: في الدخول عليه وفي الجلوس بين يديه وفي إقباله عليهما وفي استماعه منهما وفي حكمه عليهما فلا ينبغي أن يلقن واحدًا منهما حجته ولا يقبل أن يُضيِّف عند أحدهما أو يأخذ منه هدية وإلا فهي رشوة يريد أن ينال بها صاحبُها ما ليس له بحق.

ولذلك قيل: إن تولية القضاء لمن كان غنيًّا أولى من تولية من كان فقيرًا وذلك لأنه لفقره يصبح عرضة لتناول ما لا يحق له أخذه، ويُنْظر أيضًا بجانب غناه إلى ورعه وتقواه وتذكره ليوم الحساب كما مر بنا مع شريك القاضي ولذلك ربط الله العدل بفضيلة التقوى قال عز وجل: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾ [المائدة: ٨]، وقال ﷺ في الحديث المتفق عليه: «**اتقوا الله واعدلوا بين أبنائكم**». فخشية الله وتقواه وتذكر يوم الحساب تجعل القاضي يعدل بين الناس بدون اعتبار لدوافع الحب والولاء والقرابة، أو مشاعر البغضاء والشنآن والعداوة فهو يضع دائمًا نصب عينيه ما رواه أصحاب السنن أن النبي ﷺ قال: «**القضاة ثلاثة: واحد في الجنة واثنان في النار، فأما الذي في الجنة فرجل عرف الحق**

فقضى به، ورجل عرف الحق فجار في الحكم فهو في النار، ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار».

كما أنه ينبغي للقاضي أن يسمع من الطرفين لا من طرف واحد، ففي الحديث الذي رواه أحمد وأبو داود والترمذي أن النبي ﷺ قال لعلي: «**يا علي إذا جلس إليك الخصمان فلا تقضى بينهما حتى تسمع من الآخر كما سمعت من الأول فإنك إذا فعلت ذلك تبيَّن لك القضاء**»، وأيضًا ما جاء في رسالة عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري: (آس بين الناس - أي: سوِّ بينهم - في وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع شريف في حيفك أو ييأس ضعيف من عدلك).

* * *

نماذج قضائية رائعة

وقد تحاكم عليٌّ أمام عمر بن الخطاب وكان الخصم يهوديًّا، وكان عمر كعادته ينادي عليه قائلاً: (يا أبا الحسن) فلما ناداه في هذه المرة وهو يتحاكم أمامه ظهر الغضب على وجه عليٍّ فظن عمر أن عليًّا يتبرم من وقوفه مع خصمه اليهودي على قدم المساواة، فعليٌّ مكانته معروفة حسبًا ونسبًا وإيمانًا وصدقًا، فقال عمر لعلي: أكرهت أن يكون خصمك يهوديًّا؟ فقال علي: إنما غضبت لأنك لم تسوِّ بيني وبين خصمي اليهودي إذ ناديته باسمه وناديتني بكنيتي - أي: بـ(يا أبا الحسن)، وليس ذلك من عدل الإسلام، إذ الإسلام يحرص كل الحرص على تحري العدل والإقساط في الحكم ونصرة المظلوم وتوفير الضمانات للخصوم في ساحة القضاء حتى النظرة والالتفاتة.

ولم يكن القضاء مجرد وظيفة تمارس وأحكام تصدر بل أمانة تؤدى ونصيحة تبذل وقربى إلى الله عز وجل فقد كان أحد القضاة ويسمى «العسال» إذا تعين على

الخصم يمين فإنه لا يحلِّفه ما أمكنه ذلك، بل يغرم عنه ما لم يبلغ مائة دينار، فإذا بلغ المائة أو تجاوزها فإنه كان يمهله إلى المجلس الثاني ويحذره وبال اليمين الكاذب ويخوفه يوم الدين ويذكره بالوقوف بين يدي رب العالمين ثم يحلِّفه على كُره.

كما أن القاضي ليس مجرد آلة صماء يطبق مواد القانون بطريقة عمياء بل يتصرف بحكمة وكياسة وذكاء ويستغل ذلك في إقناع الخصوم وفي الإصلاح بين الناس، فقد احتكم قوم إلى الأحنف بن قيس في دم فقال لهم: احتكموا فقالوا: نحتكم دِيتين فقال: أنا أعطيكم ما سألتم، ثم قال: إن الله قضى بدية واحدة وكذلك رسوله ﷺ، وإن العرب تتعاطى بينها دية واحدة، وأنتم اليوم طالبون ولكن أخشى أن تكونوا غداً مطلوبين، فلا يرضى الناس منكم إلا بمثل ما سننتم، فقالوا له: رُدَّها إلى دية واحدة.

فالقاضي يتوخَّى العدل والإصلاح ولا ينظر فقط إلى نص القانون بل أيضًا إلى روحه وفحواه، وقد يحتال في بعض الأحيان وينظر في القرائن والأحوال حتى يتصالح الخصمان، ففي الحديث المتفق عليه أنه كانت امرأتان معهما ابناهما فجاء الذئب فذهب بابن إحداهما فقالت لصاحبتها: إنما ذهب بابنك وقالت الأخرى: إنما ذهب بابنك فتحاكمتا إلى داود عليه السلام فقضى به للكبرى، فخرجتا على سليمان بن داود عليهما السلام فأخبرتاه فقال: ائتوني بسكين أشقه بينهما فقالت الصغرى: لا تفعل يرحمك الله هو ابنها فقضى به للصغرى.

وقد روى هذا الحديث مسلم في الأقضية في باب: (اختلاف المجتهدين) وقد حكم داود للكبرى لأن الولد كان تحت يدها ولم تستطع الصغرى أن تقيم البينة على أنه ابنها أما سليمان فإنه أرى المرأتين أنه مستعد لأن يشق الطفل نصفين ويعطي لكل منهما نصفًا وأشعرهما أنه جادٌّ وعازم على ذلك وهنا تجلت عاطفة الأمومة لأن الأم لا ترضى أن يتعرض ابنها للقتل فضلاً عن أن يمس بأدنى مكروه أو يصاب بشر بل تؤثر أن ينتزع من حضنها ويعيش بعيداً عن عينها في سبيل الحفاظ على حياته، ولما

قالت الصغرىٰ: لا تفعل هو ابنها. فعرف أنها أمه فقضىٰ به لها.

وذلك من إعمال القرائن التي يتبين بها وجه الحق والصواب وتُزال بها الشبهات فقضاء سليمان لم يكن بشهود ولكن بمقتضىٰ العقل والمنطق وبتحكيم القرائن، والقرينة هنا هي شفقة الأم التي جبلت عليها فليست النائحة كالثكلىٰ وهَمُّ سليمان بشق الطفل بالسكين فكرة ذكية لمعرفة وجه الحق في القضية المتنازع فيها فإنه يجوز للقاضي أن يوهم الخصوم بشيء وهو لا يريد فعله بل وله أيضًا أن يجتهد في ابتكار الوسيلة التي يراها مناسبة في غير ضرر لكي يميز بها بين المعتدي وبين صاحب الحق ولذلك روىٰ أحمد والنسائي هذا الحديث في باب (السعة للحاكم أن يقول للشيء الذي لا يفعله أفعل ليتبين الحق). ولا يتأتىٰ ذلك إلا بمزيد من الفطنة والفهم والتوفيق من الله وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ولذلك قال عز وجل: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ [الأنبياء: ٧٩].

وإليك مثال آخر لحسن التصرف، فعن مكرم بن بكر قال: كنت في مجلس أبي حازم القاضي فتقدم شيخ معه غلام يافع فادعىٰ عليه الشيخ بألف دينار فأقر الغلام ولم يعترض، فقال القاضي للشيخ: ماذا تريد بعد إقرار الغلام؟ فقال: أريد حبسه، فقال القاضي للغلام: قد سمعتَ أنه يطلب حبسك فهل توفيه ما يقول؟ (أي تعطيه الألف دينار) فقال الغلام: لا. ففكر القاضي ساعة ثم قال: انتظر حتىٰ أرىٰ رأيي، فقلت له لِمَ أخرت الحبس ولم تحكم به؟ فقال لي: إني أعرف في أكثر الوقائع وجه الحق من الباطل، وقد شعرت أن سماحة الغلام بالإقرار شيء بعيد عن الحق، أما رأيت قلة تغاضبهما في الحوار علىٰ عظم المال؟ فبينما نحن كذلك إذ استبان الأمر، فاستأذن تاجر موسر (غني) فأذن له القاضي فدخل وقال: قد بُليتُ بابن لي غلام يتلف مالي عند فلان (وذكر اسم الشيخ الذي مع الغلام)، فإذا لم أعطه ما يطلب من المال فإنه يحتال بحيل يلجئني بها إلىٰ التزام غُرم، وأقر به أنه أوعز إلىٰ هذا الشيخ اليوم لمطالبته بألف دينار وإذا لم أدفع المال أقع مع أمه في نكد إن حبس،

فتبسم القاضي وطلب الغلام والشيخ فأدخلا، فوعظ الغلام وأقر الشيخ وأخذ التاجر بيد ابنه وانصرف.

ومن أجل ذلك قيل قاضٍ عادل وقانون جائر خير من قاضٍ ظالم يحكم بقانون عادل. فما بالك لو أنه قاض عادل يحكم بقانون عادل يقضي بالحق ويجمع بين الحسنيين؟! ولكن بئس الحال قاض ظالم يقضي في ظل قانون جائر ففي بعض دول الغرب الآن تبسط الحماية وتمنح الحرية لأهل الشذوذ وذلك بحكم القانون!!

* * *

أنصف الناس ولو من نفسك

والمسلم الحق يعدل بين الناس إذا حكم بينهم ولا يحابي أحداً على حساب الآخر، ولكن أعلى مراتب العدل أن تنصف خصمك من نفسك، أي: حينما تكون طرفًا في الخصومة وتحدثك نفسك بالانتقام والتشفي والثأر ولكن تخالف هوى النفس وتحكم بالعدل وتقضي بالحق.

وانظر في ذلك إلى السيدة عائشة مع السيدة زينب بنت جحش وهما من أزواج النبي ﷺ وكان بينهما ما هو معروف من المنافسة والغيرة استئثاراً بحب النبي ﷺ ومع ذلك حينما سألها النبي ﷺ كما في «صحيح مسلم» عن عائشة في أمر حادثة الإفك قالت: ما علمت عنها إلا خيراً وكانت أيضًا عائشة تقول عنها: كانت زينب بنت جحش تساميني في المنزلة عند رسول الله ﷺ وما رأيت امرأة خيراً في الدين من زينب وأتقى لله وأصدق حديثًا وأوصل للرحم وأعظم صدقة رضي الله عنها.

وأما من يتعصب لمذهبه وشيوخه ويقدح في مذاهب الآخرين فإننا نذكِّره بقول الشافعي رحمه الله: (إذا وجدتم في قولي خلاف سنة رسول الله ﷺ فقولوا بسنة رسول الله ﷺ ودعوا ما قلت) أي: خذوا بقوله ﷺ واضربوا بقولي عرض الحائط.

وأيضًا إذا ما أخطأت ـ وأنت لك جاه ومكانة ـ مع إنسان ضعيف لا حول له ولا طَوْل فاعترف بخطئك وأنصفه من نفسك وقل له إني أخطأت في حقك وسله أن يقبل عذرك فكل منا يؤخذ من قوله ويترك إلا المعصوم ﷺ فمن منا لا يخطئ ففي حديث ابن ماجه: «**كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون**».

ولذلك كان عمر بن الخطاب يوصي القاضي بمراجعة ما حكم به من قضاء سابق ففي رسالته إلى أبي موسى الأشعري يقول فيها (ولا يمنعك قضاء قضية اليوم فراجعت فيه عقلك وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق فإن الحق قديم والرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل).

كما أنه من الإنصاف أيضًا أن تنظر في أدلة خصمك كما تنظر في أدلتك أنت فبهذا يُعرف عدل الإنسان وانتصافه من ظلمه واعتسافه. وأيضًا عليك بقبول الحق من أي جهة جاء ولو جاء على لسان طفل صغير، واردد الباطل ولا تقبله وإن كان من عظيم أو كبير فنحن نعرف الرجال بالحق ولا نعرف الحق بالرجال.

وصدق الشاعر إذ يقول:

لا تحقرنَّ الرأي وهو موافقٌ حكمَ الصواب إذا أتى من ناقصِ
فالدرُّ وهو أعز شيء يُقتنى ما حطَّ قيمتَه هوانُ الغائصِ

وانظر إلى قول مالك رحمه الله قال: لما حج المنصور ـ الخليفة العباسي ـ دعاني فدخلت عليه فحادثته وسألني فأجبته فقال: عزمت أن آمر بكتبك هذه ـ يعني «الموطأ» ـ فتنسخ نسخًا، ثم أبعث إلى كل مصر من أمصار المسلمين بنسخة وآمرهم أن يعملوا بما فيها، ويَدَعوا ما سوى ذلك من العلم المحدث، فإنما رأيت أصل العلم رواية أهل المدينة وعلمهم. قلت: يا أمير المؤمنين لا تفعل، فإن الناس قد سبقت إليهم أقاويل وسمعوا أحاديث ورووا روايات وأخذ كل قوم بما سبق إليهم وعملوا به ودانوا به من اختلاف أصحاب رسول الله ﷺ وغيرهم، وأن ردهم عما اعتقدوه شديد، فدع الناس وما هم عليه وما اختار كل بلد لأنفسهم فقال المنصور: لعمري،

لوطاوعتني لأمرت بذلك.

وقال الشافعي: قال لي محمد بن الحسن - صاحب أبي حنيفة - أيهما أعلم: صاحبنا أم صاحبكم؟ (يعني أبا حنيفة ومالكًا)، قلت: (أي الشافعي) على الإنصاف؟ فقال: نعم، قلت: أنشدك الله، من أعلم بالقرآن، قال: صاحبكم (أي: مالك) قلت: فمن أعلم بالسنة، قال: صاحبكم، قلت: فمن أعلم بأقاويل الصحابة والمتقدمين، قال: صاحبكم، قلت: فلم يبق إلا القياس، والقياس لا يكون إلا على هذه الأشياء، فمن لم يعرف الأصول، فعلى أي شيء يقيس؟

وعن عفان قال: كنا عند حماد بن سلمة فأخطأ في حديث، فقيل له: خولفت فيه، فقال: من؟ قالوا: إسماعيل بن علية، فقام ودخل فراجع كتبه ثم خرج فقال: القول ما قال إسماعيل. وعن محمد بن يحيى الذهلي أنه أملى حديثًا فرد عليه أبو بكر الجارودي، فزجره محمد بن يحيى، فلما كان المجلس الثاني قال الذهلي: ها هنا أبو بكر؟ قال: نعم، قال: الصواب ما قلتَ، فإني رجعت إلى كتابي فوجدته على ما قلت. وقال عبد الله بن يوسف للبخاري: يا أبا عبد الله انظر في كتبي و أخبرني بما فيها من السقط، قال: نعم.

وقال حمزة بن محمد الدقاق: سمعت جماعة يذكرون أن ابن صاعد كان يملي من حفظه فأملى يومًا عن أبي كريب، فعرض ذلك على أبي العباس بن عقدة فقال: ليس هذا عن أبي كريب وإنما سمعه من أبي سعيد الأشج، فاتصل هذا القول بابن صاعد فنظر في أصله فوجده كما قال أبو العباس: فلما اجتمع الناس قال: كنا حدثناكم عن أبي كريب بحديث كذا، ووهمنا فيه، إنما حدثناه أبو سعيد الأشج وقد رجعنا عن الرواية الأولى.

وقال يحيى بن معين: حضرنا نُعيم بن حماد بمصر فجعل يقرأ كتابًا من تصنيفه فقرأ ساعة ثم قال حدثنا ابن المبارك عن ابن عون بأحاديث، فقلت: ليس ذا عن ابن المبارك فغضب وقال: ترد عليَّ؟! وأبى أن يرجع، وغضب مَنْ كان عنده من

أصحاب الحديث لغضبه وقام هو فأخرج صحائف فجعل يقول: أين الذين يزعمون أن يحيىٰ بن معين ليس أمير المؤمنين في الحديث؟ نعم يا أبا زكريا (كنية يحيىٰ بن معين) غلطتُ وكانت صحائف، فجعلت أكتب من حديث ابن المبارك عن ابن عون، وإنما رواها عن ابن عون غير ابن المبارك.

وصدق من قال:

أنصفْ وإن كنتَ ذا جاه ومرتبة ... وعُدْ إلى الحق مهما كنتَ مقتدرا

فمَن تكبَّر في حق أهُين به ... ومن تواضع في حقٍّ فقد كبُرا

* * *

إنها أحكام الأنبياء

وانظر إلىٰ تلك القصة العجيبة التي رواها البيهقي بسنده عن الشعبي قال: خرج أمير المؤمنين علي بن أبي طالب إلىٰ سوق الكوفة فإذا هو بيهودي: (وقيل نصراني) يبيع درعًا، فعرف علي الدرع، فقال: هذه درعي، فأنكر اليهودي، فقال علي: بيني وبينك قاضي المسلمين وهو شريح بن الحارث الكندي ـ قاضي الكوفة ـ فذهبا إليه وقال له علي: اقض بيني وبينه فقال له شريح: ما تقول يا أمير المؤمنين؟ قال علي هذه درعي ذهبت مني منذ زمان فقال شريح: ما تقول يا يهودي؟ فقال: ما أكذب أمير المؤمنين! ولكن الدرع درعي، فقال شريح: ما أرىٰ أن تخرج الدرع من يده، فهل من بينة؟ فقال علي: ابني الحسن يشهد علىٰ ذلك، فرفض شريح شهادة الابن لأبيه لمظنة المحاباة وقضىٰ بالدرع لليهودي ورضي بذلك علي فقال اليهودي: أما أنا فأشهد أنها أحكام الأنبياء، أمير المؤمنين يجيئ إلىٰ قاضيه وقاضيه يحكم عليه لا له؟! والله يا أمير المؤمنين إنها درعك، وقد سقطت عن جملك الأورق يوم الجمل فأخذتها، وإني لأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله. فقال علي: أما إذ